استيعاب الأسلوب البلاغي القديم للأطر اللّسانية الحديثة

د. عبد الكريم حسين رعدان

مدخل

لم يكن للعرب أية فنون تتباهى بها بين أمم الأرض سوى بلاغة القول وفصاحة اللسان، وذلك هو الرصيد الذي امتلكته على مدى عصور مديدة، حيث كان الشاعر بشعره العذب البليغ يسحر الألباب، ويشجي العواطف، وكان الخطيب ببلاغته وفصاحة لسانه يستهوي النفوس، ويستجيش المشاعر، ثم جاء القرآن بلسان عربي مبين فاستولى على الأفهام، وحيّر العقول، وانبهرت ببلاغته الأذواق، وهامت في فصاحته الألسن، كما كان القرآن الكريم - ببلاغته ومعانيه - فجراً جديداً، وخطابه حرر أمة من الجهل والاستبداد والظلم، ومضى ليصنع حضارة ليس لها مثيل.

والناظر اليوم إلى الواقع البلاغي على الميدان العملي يَجده مصاباً بالخواء والضحالة، فاللّحنُ اللّساني يتصدر المواقع الأمامية في حياتنا اللغوية، وأخطر من ذلك الزحف المتلاحق للعاميات واللهجات الدارجة، في ظل دعوات متكررة إلى دفن التراث الأدبي القديم، وإسدال الستار عليه، بحجة أنه ينتمي إلى أسلوب بلاغي جاف، وإبداع تقليدي معتم.

ومثل هذا الواقع يحتم على الدارسين التواصل الفاعل مع ذلك التراث؛ وتتبع مواضع الإبداع المضيئة في صفحاته؛ وفي القرآن إحثاثٌ على التواصل مع الماضي والنظر إلى ما فيه من أحداث وعبر، وقصص وإبداع، قال تعالى: (لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ). سورة يوسف: الآية ١١١.

والغريب أن هناك عزوفاً لدى الباحثين في الآونة الأخيرة عن دراسة التراث البلاغي القديم، وكأن الأمر قد فُرغ منه، والحقيقة أن هذا التراث لا يزال يزخر بالإبداع؛ ينتظر دراسات متعمقة، وقراءات فاعلة، تكشف خصائصه وروائعه، التي لم تنته بعد.

الأسلوب البلاغي القديم ليس في حاجة ماسة إلى أن يكدح الباحثون، جرياً وراء نظريات مجزأة من هنا وهناك، وأخذها بشكل مرتجل، لتؤدي إلى فتور في ما لدينا من مخزون معرفي وإنجازات بلاغية كبرى، هذه الإنجازات يمكن أن تستقرأ في أراء العلماء ونقاشاتهم حول قضايا الإعجاز، وعلوم البلاغة الثلاثة؛ البيان والمعاني والبديع، وحتى في علوم النحو واللغة وكتب التراث الأدبي عموما، كالتي لدى الجاحظ وابن سلام، وابن المعتز وقدامة بن جعفر وابن رشيق، وعبد القاهر الجرجاني والزمخشري والسكاكي وغيرهم، فيمكن أن يشكل ما أنجزه هؤلاء وغيرهم نظرية متكاملة، تستوعب كافة الأطر الأسلوبية والنقدية الحديثة، وتصبح منفذاً لدراسة الفنون الأدبية شعراً ونثراً؛ وفق المستويات الصوتية والبنائية والدلالية والجمالية.

تسعى هذه الورقة إلى وضع إشارات في كيفية تتبع واستقراء المادة البلاغية والرؤى الأسلوبية التي بثت في الدراسات والمصادر المختلفة بصورة مجملة من وجهة نظر الباحث.

محاور الدراسات القديمة:

يمكن أن نقسم الدراسات القديمة التي لها نقاشات حول جانب الأسلوب البلاغي إلى محورين.

أولاً: دراسات الإعجاز:

وهي تلك الدراسات التي تمحورت حول إعجاز القرآن الكريم في جوانبه البلاغية واللغوية، ومن أهمها مجاز القرآن لأبي عبيدة، وإعجاز القرآن للباقلاني، والنكت في إعجاز القرآن للرماني، وغيرها. وقد مثلت هذه الدراسات بداية الدراسات البلاغية، حيث ركزت على تحليل بعض الآيات القرآنية بلاغياً، وعددت أوجهاً

من البيان، وقد ذكرت أنَّ القرآن: ((إنما كان إعجازه من أجل ما اشتمل عليه من الفصاحة والبلاغة، ولم يكن إعجازه ما اشتمل عليه من أنباء الغيب، ولا من الحكم والمواعظ وغيرها من الأوجه)) (١).

كما أكدت على أنَّ ((الإنسان إذا أغفل علم البلاغة وأخلَّ بمعرفة الفصاحة، لم يقع علمه بإعجاز القرآن)) (٢). وفي هذه البدايات كان الدرس البلاغي مشتغلاً في جانب الإعجاز بقضيتين: الأولى قضية النظم القرآني، والثانية سرُّ تأثيره في النفوس(٣).

ففي النظم القرآني دار النقاش حول كيفية اختيار القرآن للألفاظ ووضعها المتناسق المتسق في الجملة بحيث لو غيرت بلفظة أخرى لاختل المعنى تماما، وكذا اهتم علماء البحث في قضايا الإعجاز القرآني ومعهم المفسرون بجزالة اللألفاظ وصيغها، وقد يتطرقون إلى قضايا تأويلية حول دلالات بعض التراكيب، فنرى في قوله تعالى:» أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ». سورة آل عمران الآية ١٦٥. في قوله تعالى « إن اللَّهَ على كل شيء قدير « قال القاضي ابن الطيب الباقلاني وغيره: ظاهره العموم ومعناه الخصوص لأن الله تعالى لا يوصف بالقدرة على المحالات هو الموجود في مقتضى كلام العرب(٤).

أما سر تأثير القرآن فنجد حديثاً مستفيضاً عن الجوانب البلاغية المؤثرة في نفس المخاطب، وأساليب الإقناع، إذ قال القاضي الباقلاني في قوله تعالى: «إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ» سُورَة الْقَصَص: الآية ٤ ،»هذه تشتمل على ست كلمات سناؤها وضياؤها على ما ترى، وسلاستها على ما تشاهد، ورونقها على ما تعاين، وفصاحتها على ما تعرف. وهي تشتمل على جملة وتفصيل وجامعة وتفسير، ذكر العلو في الارض باستضعاف الخلق بذبح الولدان وسبي النساء، وإذا تحكم في هذين الأمرين فما ظنك بما دونهما، لأن النفوس لا تطمئن على هذا الظلم، والقلوب لا تقر على هذا الجور، ثم ذكر الفاصلة التي أوغلت في التأكيد وكفت في التظليم، وردت آخر الكلام على أوله، وعطفت عجزه على صدره»(٥).

ومثل هذه الأقوال والتحليلات والتوجيهات البلاغية تمثل محاور لرؤى ونظريات أسلوبية قد تحوز قصب السبق لكثير من الأراء الغربية في الدراسات الحديثة.

ثانياً: الدراسات البلاغية النقدية:

وقد ركزت على الجوانب البلاغية في القرآن والشعر والنثر، ومزجت بين البلاغة والنقد، من خلال نقاشها لعدد من العناصر في الجوانب اللفظية والمعنوية، ومن أهمها؛ البيان والتبيين للجاحظ، والبديع لابن المعتز، ودلائل الإعجاز وأسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني، والصناعتين لأبى هلال العسكري، ومفتاح العلوم للسكاكي، والإيضاح للخطيب القزويني، ومنهاج البلغاء وسراج الأدباء لحازم القرطاجني وغيرهم، وقد أثارت هذه الدراسات قضايا نقدية في الشعر والنثر على ضوء القواعد البلاغية ومعايير معرفة جيِّد الأدب ومواضع الحسن والقبح.

وهناك دراسات أخرى غلب عليها النقاش النقدي للأدب، وفي مقدمتها كتاب طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحي، ونقد الشعر لقدامة بن جعفر، والشعر والشعراء لابن قتيبة، وعيار الشعر لابن طباطبا، والعمدة لابن رشيق، والموازنة للآمدي، والوساطة للقاضي الجرجاني وغيرها.

وقد احتوت هذه الدراسات على رصيد كبير في جانب الأسلوب البلاغي والنقدي من خلال الرصد والتحليل للنصوص القرآنية والشعرية والنثرية، ونستطيع القول إنها في مجموعها تناولت ثلاثة مستويات:

المستوى الدلالي: الذي يرصد الأبعاد الدلالية للتعبير، في دلالة اللفظ الحقيقية وتفرعها إلى مطابقة وتضمن ولزوم، ودلالة المجاز في صوره المتعددة، وأهمها الاستعارة والتشبيه والكناية.

المستوى النوعي: الذي يرصد مستوى التعبير من حيث علاقاته بواقع المتلقي والظروف الخارجية، ونوعية

معانيه، كالخبر والإنشاء والإسناد، والتقديم والتأخير والإيجاز والإطناب، وجميع موضوعات علم المعاني، وعدد من موضوعات النحو.

المستوى الشكلي: ويعنى بالجوانب الشكلية من حيث الصياغة والتراكيب، وبنية الأصوات والمفردات والجمل وعلاقاتها وهيئتها، ويدخل في هذا موضوعات علم البديع وقوانين الصرف، وعلوم اللغة؛ كالاشتقاق والنحت والإبدال والقلب وغيرها.

كما أن هذه الدراسات تضمنت قضايا أسلوبية تتعلق بالملقي والمتلقي والسياق، وكانت نظرتها في ذلك شاملة متكاملة. فبلاغة الكلام عند القدماء هي ((مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته.. وأما بلاغة المتكلم فهي ملكة يُقتدر بها على تأليف كلام بليغ))(٦)، وغاية البلاغة أن ((تنهي المعنى إلى قلب السامع))(٥). فمثل هذه القضايا ليست سوى إشارات إلى مستويات عامة في الأسلوب البلاغي، تتعلق بالنص وتصف مستوياته، من خلال بحثها في الجانب المحسوس للغة، وإدراك العلاقات بين اللفظ ومدلوله.

ورغم أن هذه الدراسات متداخلة وغير مرتبة منهجياً ولم تتعمق في تحليل النصوص، إلاّ إنها تمثّل – سواء في جزئياتها أو في كلياتها – الأسس التي جاءت بها الدراسات اللسانية والأسلوبية الحديثة.

ففي علوم البيان التي جاء بها الجاحظ نجد إشارات واضحة إلى قضايا تمثل أساسيات لآراء دوسوسير، فقد جعل العلامات في اللغة المنطوقة ضمن العمل اللساني، ويعني ذلك أنَّ: اللّسان عبارة عن نسق من الدلالات التي تعبر عن المعاني(٦). فلا يوجد فرق في هذا مع ما جاء به الجاحظ عندما عرَّف البيان بأنه: ((اسم جامع لكل شي كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجب دون الضمير، حتى يفضي السامع إلى حقيقة، ويهجم على محصوله كائنا ما كان ذلك البيان، ومن أي جنس كان الدليل لأن مدار الأمر والغاية التي إليها يجرى القائل والسامع إنما هو الفهم والإفهام، فبأي شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى، فذاك هو البيان في ذلك الموضع))(٧).

فهذا الإفهام اللغوي يسعى إلى تحقيق وظيفة لسانية هي الإقناع، والتواصل بين الأفراد والمجتمعات من خلال وسيلة التعبير المنطقي الواعي(٨).

ويمكن أن تصنَّف دراسات الجرجاني ضمن الأطر الأسلوبية واللسانية الحديثة، وخاصة في دراسته للمجاز، وذلك: ((أن مفهوم النظم عند عبد القاهر الجرجاني يماثل العلامات السياقية عند علماء اللغة المعاصرة، ومفهومه للمعنى، ومعنى المعنى يماثل مفهوم العلاقات الاستبدالية))(٩).

كما أن المنهج الذي جاء به ابن جني في كتابه الخصائص هو منهج لساني، وقد ركز في دراسته على جوانب بنيوية في المفردات والجمل، وعالج الكثير من المسائل الدقيقة حول الأصوات ودلالتها على المعاني، وقضايا الاشتقاق وصيغ الألفاظ وغيرها من الظواهر اللسانية. وقد احتوى كتاب سيبويه على رؤى صوتية مهمة حتى قيل عنه: ((إنه أول من وضع أصول علم الأصوات في العربية))(١٠).

وقد كشف القدماء العلاقات بين النحو وعلوم البلاغة وأهمية تلك العلاقات في الجوانب الدلالية فقالوا: ((إنَّ البلاغة والنحو يشتركان في أنَّ النحو ينظر في دلالة الألفاظ على المعاني من جهة الوضع اللغوي وتلك دلالة عامة، وصاحب البيان ينظر في فضيلة تلك الدلالة وهي دلالة خاصة))(١١). ويتضح الأمر بصورة أكثر لدى ابن خلدون عندما ناقش هذه المسألة بقوله: ((ألا ترى أنَّ قولهم: زيد جاءني مغاير لقولهم: جاءني زيد، من قبل أنَّ المتقدم منها هو الأهم عند المتكلم، فمن قال جاءني زيد، أفاد أنَّ اهتمامه بالمجيء قبل الشخص المسند إليه، ومن قال زيد جاءني أفاد أنَّ اهتمامه بالشخص قبل المجيء المسند، وكذا التعبير عن أجزاء الجملة بما يناسب المقام، من موصول أو مبهم أو معرفة))(١٢)، وهذا يشير إلى أنَّ النحو العربي يتشابه مع كثير من المدارس اللسانية الحديثة، ويماثل ما جاء من أراء في المدرسة البنيوية والتوزيعية(١٣).

ومفهوم علم المعاني عند علماء البلاغة يماثل عدداً من المستويات الأسلوبية، فموضوعه هو: ((تتبع خواص تراكيب الكلام، في الإفادة وما يتصل بها من الاستحسان

وغيره، ليحترز بالوقوف عليها من الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال وذكره)) (١٤).

وعلم المعاني هو علم حادث في علوم العربية واللغة، وهو من العلوم اللسانية المتعلقة بالألفاظ والدلالات وأحوال المتخاطبين والفاعلين وأحوال الفعل، وغير ذلك(١٥). وهذا ما تركز عليه اللسانيات في دراستها للخطاب اللغوي، حيث ((يكون موضوع علم اللسان؛ اللغة في مظهرها الأدائي، ومظهرها الإبلاغي، وأخيراً في مظهرها التواصلي)) (١٦).

فهذه المفردات التي يمثلها التراث البلاغي والنقدي جديرة أن تفي بمتطلبات وآليات البحث والمنهج، لقراءة

التراث قراءة صحيحة بدلاً من ((إراقة ماء الوجه على عتبات الغرب)) (١٧).

وخلاصة القول: إن دراسات العلماء القديمة وجهودهم في البلاغة والنقد وعلوم القرآن وغيرها قد أتت بأسس عامة لمختلف الجوانب اللغوية والبنائية والتراكيب والدلالات، وفي خصائص الأصوات والأساليب والوظائف النحوية، وفي السياق والقرينة، وناقشت قضايا حول الصوت والمفردة والجملة والنص، وكذا ما يتعلق بالملقي والمتلقي، وقامت بتحليل عدد كبير من النصوص القرآنية والشعرية والنثرية، كما وضعت أصولاً منهجية في تحقيق الدراسات وتوثيقها ونقدها، ولا أحسب أن الدراسات الحديثة قد أتت بإنجاز جديد في علوم اللغة واللسان لم يشر إليه القدماء بوجه من الوجوه.

الهوامش

(١) الطراز المتضمن لإسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، يحيى بن حمزة العلوي ، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م. ج١ ، ص ٣٣ .

(٢) الصناعتين لأبي هلال العسكري، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية بيروت لبنان ١٤١٩هـ ١٩٩٨م، ص ١.

(٣) انظر: أثر القرآن في تطور النقد، محمد زغلول سلام، دار المعارف ، الطبعة الثالثة د ت . ص ٢٦٦ .

(٤) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: لابن عطية الأندلسي، تحقيق : عبد السلام عبد الشافي محمد، دار النشر : دار الكتب العلمية – لبنان – الطبعة : الأولى ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م. ج١، ص٥٩١.

(٥) إعجاز القرآن لأبي بكر، تحقيق: السيد أحمد صقر دار المعارف – القاهرة. ص١٩٢، ١٩٣.

(٦) الإيضاح في علوم البلاغة، جلال الدين الخطيب القزويني، مراجعة: عماد بسيوني زغلول ، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م، ص١٣، ١٥.

(٥) الصناعتين لأبي هلال العسكري، ص٦.

(٦) انظر: الرؤية الأسلوبية في البلاغة العربية، د. ماهر مهدي هلال، مجلة الأقلام العراقية، عدد (٩) ١٩٩٤م ، ص٣٩.

(٧) البيان والتبيين: أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق: فوزي عطوى، دار صعب بيروت، الطبعة الأولى ١٩٦٨م. ج١، ص٥٤، ٥٥.

(٨) انظر: البلاغة العربية، حسن المودن، علامات في النقد، المجلد الرابع عشر، العدد (٥٣) رجب ١٤٢٥هـ سبتمبر ٢٠٠٤م، ص٣٨٢.

(٩) مفهوم النظم عند عبد القاهر الجرجاني قراءة في ضوء الأسلوبية، نصر أبو زيد، فصول، المجلد الخامس، العدد الأول (أكتوبر، نوفمبر، ديسمبر) سنة ١٩٨٤م، ص٢٢.

(١٠) التطور النحوي للغة العربية: براجشتراسر، مطبعة السماح القاهرة ١٩٢٩م، ص٥ .

(١١) المثل السائر، ضياء الدين بن الأثير، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٩٥م، ج١، ص٢٦.

(١٢) مقدمة ابن خلدون، تحقيق: أ. حجر عاصي، دار ومكتبة الهلال، بيروت ١٩٩١م، ص٣٤٢.

(١٣) انظر: نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر النحوي الحديث ، د. نهاد الموسى ،المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت لبنان ١٤٠٠هـ/ ١٩٩٤م، ص ٢٩- ٤٠.

(١٤) مفتاح العلوم، للسكاكي، ص٧٠ .

(١٥) انظر: مقدمة ابن خلدون، ص٣٤١.

(١٦) اللسانيات وأسسها المعرفية، د.عبد السلام المسدي، الدار التونسية للنشر، تونس، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائري ١٩٨٦م، ص٨١.

(١٧) صورة المتلقي في التراث النقدي ، الحسين آيت مبارك ، مجلة جذور المجلد العاشر، ص٣٧٨.

المصادر والمراجع

١- أثر القرآن في تطور النقد، محمد زغلول سلام، دار المعارف ، الطبعة الثالثة د ت .

٢- إعجاز القرآن لأبي بكر، تحقيق: السيد أحمد صقر دار المعارف – القاهرة.

٣- الإيضاح في علوم البلاغة، جلال الدين الخطيب القزويني، مراجعة: عماد بسيوني زغلول ، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.

٤- البيان والتبيين: أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق: فوزي عطوى، دار صعب بيروت، الطبعة الأولى ١٩٦٨م.

٥- التطور النحوي للغة العربية: براجشتراسر، مطبعة السماح، القاهرة ١٩٢٩م.

٦- الصناعتين لأبي هلال العسكري، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية بيروت لبنان ١٤١٩هـ ١٩٩٨م.

٧- الطراز المتضمن لإسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، يحيى بن حمزة العلوي، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م.

٨- المثل السائر، ضياء الدين بن الأثير، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٩٥م.

٩- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: لابن عطية الأندلسي، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار النشر: دار الكتب العلمية، لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ ١٩٩٣م.

١٠- مقدمة ابن خلدون، تحقيق: أ. حجر عاصي، دار ومكتبة الهلال، بيروت ١٩٩١م.

١١- اللسانيات وأسسها المعرفية، د.عبد السلام المسدي، الدار التونسية للنشر، تونس، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائري ١٩٨٦م.

١٢- نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر النحوي الحديث، د. نهاد الموسى ،المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت لبنان ١٤٠٠هـ/ ١٩٩٤م.

المجلات والدوريات:

١- علامات في النقد، المجلد الرابع عشر، العدد (٥٣) رجب ١٤٢٥هـ سبتمبر ٢٠٠٤م.

٢- فصول، المجلد الخامس، العدد الأول (أكتوبر، نوفمبر، ديسمبر) سنة ١٩٨٤م.

٣- مجلة الأقلام العراقية، عدد (٩) ١٩٩٤م.

٤- مجلة جذور المجلد العاشر.